

2013 11 18

قبل تخرجه ببضعة أشهر، قمنا برحلة إلى آركنسو، ظاهرياً كي يتقدم لامتحان محاماة، وقال إن عليّ أنا أيضاً أن أفعل تحسباً. نجحنا كلانا. مع أنه لم يكن يظن أنه كان يعرف عندئذ، فإنه أخذني بالفعل إلى البيت لمقابلة أمه؛ كنت مرهقة، ووسخة جراء الرحلة الطويلة، معتمرة (قلبياً) فوق شعري المزيّت، بلا أي مكياج، حين التقينا؛ أمه وأنا للمرة الأولى.

ولا أكبر من ذلك التناقض بين شخصين يمكن تصوّره؛ كانت امرأة متوهجة شديدة الحرص على مواصلة الألق، كانت متبرجة حتى في النوم، كما قالت؛ كان التبرج يستغرق وقتاً طويلاً. كانت رموشها مظلمة بثلاثة خطوط، كان شعرها مزيئاً بخصلة مصبوغة باللون الفضي في الوسط. بدت لي أشبه بظربان؛ لن أنسى ما حبيت كيف صُدمت حين رأيتي للمرة الأولى، صدمتها التي انعكست على وجهها كانت توحى بأن ابنها الرائع كان قد التقط مخلوقة مشردة من تحت أحد الجسور؛ لعله فعلها بحسب ظنها. لم يكن الاختلاف محصوراً بمظهرينا؛ كانت مشهورة بأنها سيدة عاشقة للمتعة واللهو، في تناقض صارخ معي. استقبلها لي كان جليدياً، ومنافياً للأسلوب الجنوبي تحديداً؛ أخشى ألا تكون قد تجاوزت انطباع ذلك اللقاء الأول، أنا أيضاً لم أفعل.

بلّ فنان في التملق، يتقن انتقاء الكلمات المناسبة لاسترضاء الناس؛ لا غرابة! نشأ في حضن أمه. أول الأشياء التي كانت تقولها له كل صباح: لا أحد يعترف لي بأني جذابة وبارعة! وهو يردد عليها: أنت بالغة الجمال يا فيرجينيا، كأنك قديسة، فيضمن بقاءها ملاطفة إياها طوال النهار.

ذات مرة، كان محلّقاً في الخيال وأخفق في إسماع فيرجينيا التعليق المناسب، فأهملته لساعات. غير أن بلي الصغير كان سريع التعلم؛ كف بالمطلق عن النسيان، علمته كيف يتملق النساء ويمدحهن؛ علمته درساً ظل يطبقه طوال باقي سني حياته.

إحدى قصصي المفضلة عن بل تتعلق بزواج أمه الكحولي، البذيء الذي كان شديد القسوة مع فيرجينيا، ولا سيما حين كان غضبه يزيد أواراً بنار الغيرة؛ ذات مرة حين كان في المراحل الأولى من مراهقته، دخل بل إلى إحدى الغرف ورأى زوج أمه باطحاً فيرجينيا أرضاً، خالِعاً نعلها الذي راح يضربها به بضراوة، رفعه بل عنها ممسكاً به من رقبتة وصرخ في وجهه السكران العفن طالباً منه التوقف، قائلاً إنه إذا أعاد فعلته فإنه سيعرف كيف يتعامل معه.

قلت: يا لها من قصة بالغة الروعة يا هيلاري؛ مراهق يتصدى لبديل أبيه نجح في حل عقده الأوديبية ولن يخاف أبداً من التنافس مع كائن من كان في العالم. حتى في شبابه، لم يتردد بل في أن يقول إنه سيصبح حاكم أركنسو وسيُنتخب بعد ذلك رئيس جمهورية لولايات المتحدة.

كان بل محبوب أمه، عنصر التعويض الوحيد في حياتها، الكأس المقدسة التي صببت فيها كل ما راودها من آمال وأحلام. تابعت هيلاري: وتولى بل بدوره تهذيب زوج أمه وأخيه روجر؛ كان بل أباً، وأخاً، وابنّاً للعائلة كلها. شغف أمه به بدا رائِعاً، إلا أنه كان خانقاً. قيل إن أي رجل يقترب زواجاً بنسخة عن أمه تكون أصغر سنّاً. والشخص الذي قال ذلك لم يسبق له أن التقى فيرجينيا كلي وهيلاري رودهام.